

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

التحيز في فكر الشيخ عدون

بين النزعة المحلية والرؤية الحضارية

د. محمد موسى باباعي
معهد المناهج، برج البحري، الجزائر
3 رمضان 1429هـ / 3 سبتمبر 2008م

تمهيد:

الحمد لله القائل في محكم تنزيله: "وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا" (سورة البقرة: آية 143)، والصلاة والسلام على خير البرية، محمد الأمين، القائل: "لا تكونوا إمعة، تقولون: إن أحسن الناس أحسنا، وإن ظلموا ظلمنا. ولكن وطنوا أنفسكم، إن أحسن الناس أن تحسنوا، وإن أساءوا فلا تظلموا"⁽¹⁾.

وبعد، فإنَّ المرء - لحكمة ربّانية أرادها الله - يولد في ظروف لا يختارها، ولا يملك تغييرها ولا تبديلها، ذلك أنَّ الانتماء سنّة من سنن الله في عباده:

* فالمرء منسوب إلى والديه وعشيرته ووطنه.

* وهو معدود ضمن عصره وجيله وزمانه.

* وهو سبحانه يمنحه اللسان الذي به يتواصل: "واختلاف ألسنتكم".

* والله تعالى يصور العباد كيف يشاء: "في أيّ صورة ما شاء ربّك"، "واختلاف ألسنتكم وألوانكم".

(1) - رواه الترمذي، كتاب البر والصلة عن رسول الله؛ رقم 2007. قال أبو عيسى: "هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه".

* وهو محسوب على مذهب آباءه، وحركتهم، وفكرهم، واختياراتهم.

ولقد تقرّر شرعاً - بمقتضى عدل الله تعالى - أنّ الإنسان لا يحاسب على أمر أجبر عليه، وليس له فيه اختيار؛ فليس النسب، ولا العصر، ولا اللون، ولا اللغة، ولا مذهب الآباء... محلاً للحساب يوم القيامة، ذلك أنّ مناط التكليف ما للإنسان فيه دور ودخل وفعل وخيار "وهديناه النجدين"، "إنّا هديناه السبيل، إمّا شاكراً وإمّا كفوراً".

ومن هنا كان كلُّ تعصّب لهذه الانتماءات أو لأحدها نوعاً من الحمية والجاهلية، التي نهى الله عنها، وشدّد على أنّ الفرق يصنعه التقوى وحده، فلا فرق بين فرد وفرد، ولا بين أمة وأمة، إلاّ بمقدار التقوى، والقرب من الجليل، وطاعة أوامر الرحمن: "إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم"، "فلا تركوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى"، "ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلم لست مؤمناً....".

وقد عدّرت معجم مصطلحات الإباضية الحمية بأتمها: «هي العصبية والأنفة، وهو المنع عن الحقّ انتصاراً للنفس أو الغير، وهي لازمة عن حبّ المرء قومه على سوء فعلهم، وإعانتهم على باطلهم، باللسان أو المال أو البدن؛ فهي من أفعال القلب، ومن أفعال الجوارح.

صنّفها الجناوئيّ و ابن جُميع ضمن قواعد الكفر، ويقصدان الحميّة في معناها المذموم، أمّا الحميّة للحقّ فمحمودة وواجبة»⁽²⁾.

ولقد طوّر "المعهد العالمي للفكر الإسلامي" مصطلح "التحيز"، الذي يضع الحدّ الفاصل⁽³⁾ بين الانتماء الطبيعيّ والاختلاف المحمود، وبين الحمية الجاهلية والفرقة المذمومة، حتى إنّ دورة "إشكالية التحيز" التي نظّمها المعهد، بإشراف الدكتور عبد الوهاب المسيري، دعت إلى إرساء مناهج لما يمكن تسميته: "فقه التحيز".

وعلى ضوء "فقه التحيز" نطالع مقالات الشيخ عدون في مختلف الجرائد، لتبين مدى تحيزه لبعض النماذج المعرفية، سواء الكلية منها أم الجزئية؛ وهذا الإجراء يمكننا من اكتشاف الشخصية أكثر، ومن الولوج في عالم أفكاره وطرحاته، بغية فهم أفعاله ومواقفه.

(2) - جمعية التراث: معجم مصطلحات الإباضية؛ مادة "حمي" ج1/ص311.

(3) - مشكلة الحدّ الفاصل من أعمق مشكلات علم المنهجية، ونظرية المعرفة. يقول كارل بوبر: "مشكلة الحدّ الفاصل تكتسي أهمية كبرى بالنسبة لنا. إنّ مهمّة إعطاء معيار مفيد للحدّ الفاصل أمر حاسم في أيّ نظرية معرفة غير مبنية على المنطق الاستقرائي" غير أننا نرى أنّ المشكلة لا تغادر حتى ما أسس على الاستقراء، ذلك أنّ الاستقراء لا يعطي العلم صفة اليقين، رغم أنّ النسب متفاوتة. وانظر - بوبر كارل: منطق الكشف العلمي؛ تر. د. محمد البغدادي؛ مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت؛ ط10:

يقوم "فقه التحيز" على جملة من المقدمات، التي تؤسس منطلقاته، وتحدّد معالمه، من جملتها:

* أن كلَّ فعل إنسانيٍّ له بعد ثقافيٌّ، مهما بدا صغيراً أو بسيطاً.

* أن ما نشاهد من أفعال أو نسمع من أقوال مما يصدره الناس، بغضِّ النظر عن مستواهم المعرفي، أو انتماءاتهم المختلفة، ما هو إلاّ تنفيذ لقناعات تشكّل خريطة العقل البشريّ⁽⁴⁾؛ ولكلِّ إنسان خريطة الخاصة، تسهم في بنائها مقدمات فطرية (الوراثة) وظروف اجتماعية (الكسب). والتغيير في الخريطة يؤدي إلى تغيير في الواقع، كما أنّ التغيير في الواقع يسهم في تعديل الخريطة، تحت مسميات عدّة، منها: التعلّم، والتربية، والخيرة، والعبرة... الخ.

الخريطة العقلية للإنسان ↔ أفعاله وأقواله

* ومن جملة المقدمات أنّ «التحيز مرتبط ببنية عقل الإنسان ذاتها... فهو (أي العقل) يدرك الواقع من خلال نموذج فيستبعد بعض التفاصيل، ويبقي بعضها الآخر، ويضخّم بعض ما يتبقّى، ويمنحه مركزية، ويهمّش الباقي»⁽⁵⁾ فالعقل ليس آلة ساذجة، لكنّه جهاز واع، له خصوصياته، هذا الذي يفسّر اختلاف المدارك، والمواقف، والخيارات، والانتماءات... الخ.

* والقاعدة الأخرى تثبت أنّ «التحيز لصيق باللغة الإنسانية نفسها، فلا توجد لغة إنسانية واحدة تحتوي على كلِّ المفردات الممكنة للتعبير عن الواقع بكلِّ مكوّناته، أي أنّه لا بدّ من الاختيار»⁽⁶⁾ ومن خلال تحليل اللغة والخطاب يمكن اكتشاف الكثير من الأسرار التي يحثّوها العقل، سواء في مستوى الفرد الواحد أم في مستوى المجتمع المشترك ثقافياً.

* فالتحيز وفق هذه المقدمات «من صميم المعطى الإنساني، ومرتبطة بإنسانية الإنسان، أي بوجوده ككائن غير طبيعيٍّ، لا يردُّ إلى قوانين الطبيعة العامّة ولا ينصاع لها. فكلُّ ما هو إنسانيٌّ يحوي على قدر من التفرد والذاتية ومن ثمّ التحيز»⁽⁷⁾.

* بعض التحيزات ترسمها الرؤية إلى "الخالق" و"الكون" و"الإنسان" و"الحياة"، فتعرف عند توماس

(4) - خريطة العقل هنا لا علاقة ليست هي خريطة "بيار بوزان" التي تفيد في صياغة المخططات بتوظيف تقنيات إدارية معينة.

(5) - المسيري: إشكالية التحيز؛ ج1/ص33.

(6) - نفسه.

(7) - نفس المرجع؛ ج1/ص33-34.

كون، بـ«النموذج الكلبي»، وبعضها الآخر يعود إلى رؤى مصغرة ومحددة، تُعرف بـ«النماذج المعرفية»، فالتوحيد لدى المسلمين - مثلا - يعود إلى النموذج الأول، أمّا الاختيارات الفقهية والسياسية، فمردّها إلى النموذج الثاني (8).

وإذا ما تقرر سننياً رسوخ التحيز في الفطرة الإنسانية، كان السؤال القيميّ البدهي:

هل التحيز إيجابي ومقبول، أم هو سلبي ومرفوض؟

والجواب على ذلك يؤسس للقواعد الآتية:

*أنّ التحيز في حدّ ذاته إيجابيٌّ، ذلك «أنّ التحيز هو حتمية التفرد والاختيار الإنسانيّ» ولقد شاء الله تعالى أن لا نكون شعبا واحدا، بل شعوبا وقبائل مختلفة، تنظمننا سنّة "التعارف" - لتعارفوا - «ولكن، لا يعني هذا بالضرورة التناحر ونفي الآخر» (9) "وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ" (سورة هود: آية 118).

*أنّ ما جاوز حدّ الانتماء الطبيعيّ الفطريّ، إلى ادعاء الأفضلية والخيرية، وما اتّخذ مقياسا للتفاضل بين الناس، كأن يؤمن أحدٌ أنّ العرق الفلانيّ أفضل من الأعراق كلّها، أو اللغة العلانية هي أفضل اللغات طرا... هذا النوع من التحيز فساد في الحكم والمنطق، وزيع عن الحقّ والصواب، وخرق لصفة العدل الربانيّ. ويمكن تقسيم التحيز إلى أنواع منها (10):

- 1- ما يعرف بالالتزام، وهو «التحيز لما يراه الإنسان على أنّه حقٌّ».
- 2- التحيز للباطل، تحت مسميات وأشكال مختلفة: «التحيز للقوّة»، و«التحيز للسلطان»، و«التحيز للمصلحة الخاصّة»، و«التحيز للقبيل... الخ.
- 3- وهناك تحيز عن وعي، وآخر بلا وعي.
- 4- وثمة تحيز حادّ ومبالغ فيه (التحيز الشيوعي نموذجاً)، وآخر رحيم ووسط (التحيز المعقول للوطن).
- 5- وتوجد تحيزات ظرفية آنية (لشخص أو جماعة)، وأخرى ثابتة مستقرّة دائمة (لمذهب أو فكرة راسخة).

ومن غير الممكن تعريف التحيز تعريفا جامعا مانعا، فهو في مجمله ملخّص للأفكار الواردة أعلاه،

(8) - العلواني، طه جابر: مقدمة إشكالية التحيز؛ ج1/ص10.

(9) - المسيري: إشكالية التحيز؛ ج1/ص34-35.

(10) - نفس المرجع؛ ج1/ص35-40.

وهو في اللغة يعني «الانضمام والموافقة في الرأي»، وقد جاء ذكره في القرآن الكريم، في قوله تعالى: "أو متحيزا إلى فئة" (الأنفال، 16). وقد حمل دلالة سلبية أملاها سياق الآية: "وَمَنْ يُؤْمِنِ دُبْرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِتْنَةٍ، فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ، وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ".

وبدهي أنّ توظيف القرآن للفظ ما في سياق سلبي لا يجعل اللفظ (المصطلح، أو المفهوم) سلبيا في كلّ دلالاته، والأمثلة من القرآن الكريم والسنة واضحة.

وتقوم هذه المحاضرة على التنقيب عن تحيزات الشيخ عدون، سواء في ذلك الكلية منها أم الجزئية، من خلال مقالاته في جريدة الشباب، وفي مختلف جرائد أبي اليقظان.

ثم إنها تحاول أن ترصد فكر الشيخ "بين النزعة المحلية" و"الرؤية الحضارية العالمية"، لتجيب على

سؤال:

هل كان الشيخ يفكر محليا ويعمل محليا؟ أم أنه كان يفكر عالميا ويعمل محليا؟

تحيزات الشيخ عدون، من خلال مقالاته:

إذا ما حللنا مجمل مقالات الشيخ عدون، فإننا نستخرج جملة من التحيزات التي أعلن الشيخ عنها صراحة، وعددا من التحيزات التي لم يصرح بها، ولكنها تشكل "نماذجه المعرفية"، وهي تقع في فيما بين أواسط العشرينيات وأواخر الثلاثينيات من القرن العشرين.

*أولا- الإخلاص (ابتغاء رضوان الله):

وهو تحيز إلى نموذج معرفي كليّ عالميّ كونيّ حضاريّ؛ فلقد عُرف الشيخ عدون بإخلاصه؛ حتى لقبه البعض بأنه: "الإخلاص يمشي على رجلين"⁽¹¹⁾، ذلك أنه يردُّ كلّ قول أو فعل، وكلّ حركة أو سكون، إلى "رضوان الله تعالى"، فما كان في سبيله قبله، وناجح عنه، ودعا إليه، وشجّع أصحابه على المضىّ قدما في تحقيقه... بغضّ النظر عن الانتماء، وعمّا يقول الناس فيه، قبلوه أم رفضوه...

فكثيرا ما اشتكى إليه بعض الناس بعضهم الآخر، بحكم مسؤولية، فكان جوابه المختصر: «دعوه، فإنّ كان مخلصا وفق، وإن كان غير ذلك فالله يتولّى أمره... ثم يقول باللفظ: ما كان لله دام واتصل، وما كان لغير الله انقطع وانفصل».

(11) - نسب الدكتور محمد ناصر هذا القول للشيخ عبد الرحمن بكلي؛ انظر - مشايخي كما عرفتهم، ص 305.

يقول الدكتور ناصر: "لو يسأل آلاف المتخرجين من الطلاب أو من الناس الذين يعرفون الشيخ عدون، وقد طوى اليوم في جهاده الرائع أكثر من سبعين سنة؛ لو يسألون عن أبرز خصال الشيخ عدون، وأهم صفاته، لَمَا اختلفوا على كثرتهم حول القول بداهة: إنه الإخلاص.

إنَّ هذه الصفة في حدِّ ذاتها هي مفتاح شخصيته، ونواة نفسه، وحبَّة قلبه، عليها تدور كلُّ صفاته الأخرى، ومنها تستمد إشعاع الورع والتقوى، فتضيء كلَّ جوانب نفسه، وتملأ بها أعماق معاشره وعارفه" (12).

من هنا أعتقد أنَّ أوَّل وأكبر تحيُّز للشيخ في فكره وأعماله هو: "التحيز إلى رضوان الله تعالى". لا غير، وقد ظهر في شكل لا تشوبه شائبة، وهو: الإخلاص.

وقد يعترض بعض فيقول: كلُّنا ذلك الرجل، وكلُّنا يتبغي رضوان الله في عمله.

الجواب أنَّ المحن، والزمن كفيلا بفرق الناس، واختبار إيمانهم وإخلاصهم وصدقهم، وقد عاش الشيخ أكثر من مائة عام لم يبدل ولم يغيّر، مهما بلغت به عوادي الزمان، ومظالم الإنسان... وكم من مدَّع تقوى وورعا وإخلاصا أغرته بعض الدنانير والدريهمات، أو دعت به بعض المناصب والكراسي، أو أسالت لعبه بعض النياشين والمقامات، فارتدَّ على عقبيه، وباع دنياه بأخرته، ونسي الله ورسوله واليوم الآخر.

وفحوى هذه المعاني تعريف الشيخ عدون للمطمح الأسمى للإنسان بقوله: «مطمح كلِّ إنسان هو الغاية التي يعمل لها، والمثل الأعلى الذي يطمح إليه، ويسعى للحصول عليه، فما من عامل إلاَّ وله في عمله وجهة يرنو إليها، وغرض يود تحقيقه، وتختلف هذه الغاية أو هذا المطمح شرفا وخسَّة، عظمة واحتقارا، باختلاف أنظار الناس واختلاف عقولهم» (13).

ويوصي الشيخ عدون قومه وأهله، ومن خلالهم يوصينا نحن الذين نحبي هذا الملتقى، ونحتفل بفتح هذا المعهد، بوصية خالدة، فيها خلاصنا إن وعينا وعلمنا فعملنا، وفي مخالفتها - والعياذ بالله - هلاكنا وزوالنا وذهاب ربحنا، فيقول: «التمسوا أيها الناس رضى الله في جميع ما تعملونه، إن أردتم سعادة الحياتين، واصرفوا أنظاركم عن متاع الحياة الفانية، فهَمُّكم أشرف وأعزُّ من أن تتركوها تتعلَّق بأمر حقير سريع الفناء والزوال، وفي وسعكم أن تحملوها على التعلُّق بأشرف غاية تتفق مع شرفها وكرامتها،

(12) - محمد ناصر: مشايخي كما عرفتهم؛ ص304.

(13) - النور؛ عدد 9، الثلاثاء 28 جمادى الثانية 1350هـ / 10 نوفمبر 1931م.

فتحظوا بالسعادتين وتناولوا الحسنين!!» (14).

*ثانيا- التربية والتعلم عماد الحضارة:

يرتبط اسم الشيخ عدون بالتربية والتعليم - في وادي ميزاب - ارتباط الخبز بالابتداء، والسبب بالمسبب، فكلما ذكر التعليم في ميزاب تذكّرنا جهود الشيخ عدون، وكلّما رأينا الشيخ عدون يجتهد ويسعى، أو سمعناه وهو يوجّه الناس ويعظهم، رأينا فيه أثارة التربية، وسمعنا منه الدعوة إلى العلم الصحيح النافع.

فإذا كان الشيخ بيوض رائد الإصلاح بعامة، فإنّ الشيخ عدون هو الرائد الخريّ للتربية والتعليم في ميزاب، بلا منازع؛ فقد راعى المدرسة الحرّة وعاش لأجلها، وجاهد واجتهد في تطويرها والرفق بها. يقول الدكتور محمد ناصر: «لقد كان الشيخ عدون من السابقين لإصلاح نظام التعليم بوادي ميزاب عموما والقرارة خصوصا» (15).

وفي مقالاته نقرأ هذا "النموذج المعرفي" المتمثل في البعد التربوي، الذي نفهم من خلاله كلّ جملة وكلّ كلمة يكتبها الشيخ، تصريحا أو تعريضا. ومن هذه النافذة كتب مقالا بعنوان: "أعداء العلم الألداء"، ومما قال فيه: «فمنهم من وقف إزاء العلم موقف الزاهد فيه المعرض عنه، ومنهم من وقف موقف العدوان والمحاربة جهارا، وقليلٌ منهم من يناصر العلم والعلماء، ويسعى باجتهد في تشييد مبانيه، وتقويم مشاريعه، ونشره بباعث الغيرة والإخلاص...».

ثم أردف بقوله، وكأنه يشكو قصور الهمم وانتشار ثقافة القلّة والالتكال والوهن: «لم تكف كلُّ هذه العبر لإيقاظ الهمم، ولم تغن الآيات والنذر التي تباكرنا وتراوحنا، فبقيت الهمم خامدة، والمشاعر مخدّرة، فإذا دعوا إلى العلم "قالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه، وفي آذاننا وقْر، ومن بيننا وبينك حجاب"» (16).

وفي مقال بعنوان "كيف يكون الإصلاح وما هي وسائله" كتب الشيخ عدون: «وأساس كلّ نهضة: العلم الصحيح، والخلق المتين؛ فمن توفّرت لديه هاتان القوتان فقد سُقيت له السعادة بحذافيرها، ونال أقصى غاية يتوخّاها، هما قوتان عتيدتان، بعيدتا المنال، لا يمكن الحصول عليهما إلّا بتضحيات غالية،

(14) - النور؛ عدد 10: 6 رجب 1350هـ / 17 نوفمبر 1931م.

(15) - مشايخي كما عرفتهم؛ ص308.

(16) - النور؛ عدد 40: الثلاثاء 29 صفر 1351هـ / 5 جويلية 1932م، ص1.

تضطلع بأعبائها هيئات مؤسّسة، وجماعات منظّمة، تتكافل فيها القوى وتتحد المقاصد» (17).

وقبيل وفاة الشيخ بمدة قصيرة، شاء الله أن نسعى في "إنشاء مكتب للدراسات العلمية"، وأن نعمل - في فريقٍ - على تأسيس مدارس خاصة - في الحمير وغيرها - بمقاييس علمية-إيمانية، كان أوّل من سألت فضيلة الإمام الشيخ عدون، وبخاصّة أنّ عواصف الرفض كانت هوجاء من أناس آثروا الإحجام على الإقدام، فما كان من الشيخ إلّا أن أعطى لي الوقت الكافي، ليفهم الغاية والأهداف، وبعد مدّة صاغ مقولته التاريخية: «إننا أوجدنا حلولاً لعصرنا، فعليكم أنتم أن توجدوا الحلول لعصركم»، ثم قال في مناسبة أخرى: «إننا نعيش عصراً متطوراً، ولذا فنحن في حاجة إلى مدرسة متطورة».

فكان الشيخ عدون الملائدّ الأول بحمد الله، والصور الذي سخره الله لنا ليحمينا من شلّ الشاكين، وعرقلة المعرقلين...

واليوم وقد ظهر الصبح لذي عينين، وأشرقت شمس الحق لكل مبصر، أقولها صريحة: ليس لأحد من فضل في رياح التغيير إلّا للشيخ، فهو الأمر وهو المبارك، وهو الداعي وهو الحامي... وسبحان الذي يسجّر من يشاء لما يشاء، متى يشاء، وكيفما يشاء.

وفي هذا التحيز للتربية والتعليم تبرز شخصية الشيخ عدون زعيماً ورائداً، وتتضح مكانته إماماً وموجّهاً، فله ذرّه يوم كان حياً، والله مجازيه خير الجزاء وهو في جواره، ينعم - إن شاء الله - بالرضى واليقين.

*ثالثاً- الإصلاح الشامل:

انتماء الشيخ عدون إلى الحركة الإصلاحية التي قادها الزعيم الإمام الشيخ بيوض، لم يكن ظرفياً، ولا مصلحياً، ولا مباحةً، ولا عصبية، لكنه آمن بالأفكار التي حملها، والمناهج التي تبناها، والقضايا التي عالجها، بل إنّه كان مراراً الرائد في بعض المجالات التي دعت الحركة إلى إصلاحها.

ولعلّ أظهر مسألة كان فيها الشيخ عدون أكثر اندفاعاً نحو الإصلاح من الشيخ بيوض نفسه، ما عرف بقضية تعليم البنات، ذلك أنّ الشيخ عدون كان "شديداً" في هذه المسألة، وهو اللين في غيرها، وكان عملياً إذ لم يُجدّ الكلام، فراح يُلبس ابنته لباس الذكور ويدرجها في مدرسة الحياة إلى جوارهم، وقد أكّد الشيخ هذه المعلومة - هو بنفسه - حتى يقنع الناس بضرورة تعليم البنات، وهكذا كان، فنحن اليوم ننعّم

(17) - (الأمة عدد 65: 9 ذو القعدة 1354هـ / 3 مارس 1936م)..

بثقافتها وفكرها وتربيتها، والله الحمد والمِنَّة.

ومن ثمَّ كان الشيخ عدون مُصلحاً قلباً وقالبا، ولعلَّ أغلب مقالاته كانت تحوم حول الصراع المحتدم بين الإصلاح ومعارضيه:

ففي جريدة المغرب كتب مقالا في حلقتين بعنوان: "دعاة الإصلاح وما يجب عليهم". وفي وادي ميزاب كتب: "جولة في وادي ميزاب". وفي النور كتب: "الأفكار المستعبدة بالأوهام والخرافات"، "الأوهام وآثارها في النفوس"، و"الجمود وكيف يجب على الأمة الالتقاء منه"، و"متى يجلب الإصلاح؟". ثم: "إذا لم يكن الإصلاح لدفع الإفساد فمتى يكون و لماذا يجب إذا؟" وفي الأمة كتب: "الاجتماع العام لجمعية الحياة بالقرارة".

يقول الشيخ في جريدة النور: «الإصلاح المنشود هو ما يشمل الدينيَّ والديويَّ، إذ كلُّ واحد من هذين متوقَّف على إصلاح الآخر، فالدين لا يصلح إلَّا بإصلاح الدنيا، والدنيا لا تصلح إلَّا بإصلاح الدين؛ فباجتماعهما وتقدُّمهما متكاتفين تحصل السعادة المطلوبة، وإن افترقا أسرع إليهما الخراب واضمحلا معا؛ فالدين يقتصرون في الإصلاح على ناحية واحدة ويغفلون النواحي الأخرى قد ضلوا وما كانوا مهتدين».

إلى أن يقول في نفس السياق: «إنَّ الإصلاح الذي ندعو إليه ليس مقصورا على ناحية واحدة كما هو الشأن في مصر، حيث إنَّها أفرغت جهدها في الإصلاح السياسيِّ، ولم تشتغل بغيره اشتغالا ظاهر الأثر، إلَّا في المدة الأخيرة، لما نجم فيها قرن الإلحاد والزيف».

وفي مقال آخر يقول: «إنَّ نواحي الإصلاح التي لا تستقيم لنا حياة إلَّا بترميمها كثيرةٌ وفروعه متشعبة، وتنحصر في نواح ثلاث: اجتماعية، واقتصادية، وسياسية؛ تلك هي أسس حياة الأمم وبانعدامها تنعدم حياتها».

فهذا تحيز من الشيخ للحركة الإصلاحية، وقد عرفناه - أواخر حياته - وهو متسامح مع الكلِّ، مواس للجميع، يحبُّ الإصلاح وينافح عنه، لكنه لا يتعصَّب له، ولا يلغي "الآخر" ممن ليس في صقِّه.

ولقد بدأ تحيزه من كون ما كتب - في مجمله - لا يخرج عن دائرة جريدة الشباب، وهي تابعة للحركة الإصلاحية، وكذا جرائد أبي اليقظان، التي تعتبر لسان حال الحركة الإصلاحية... فالشيخ عدون متحيز بالتالي إلى الحركة، ومؤمن بأحقيتها وصدقها، وكونها المنبر الذي منه يخاطب، وفيه يخُطب.

وإذا نظرنا إلى الظروف التاريخية لكتابة المقال، فإنَّنا نجد مبررا للشيخ، ذلك أنَّ هذه الحقبة كانت

الذروة في الصراع بين المحافظين والمصلحين، ولم يكن من المتصوّر أن ينشر الطرف الثاني للأول، أو العكس، مقالاته وكتبه، ولا أن يتبنى آراءه وطرحاته.

وهذا الصراع - حسب وجهة نظرنا - طبيعي، لولا التجاوزات التي صدرت وسجّلت من حين لآخر، تعدّت مجرد الاختيار الفكريّ الحركيّ، إلى سجلّ ماديّ وجسديّ ما أنزل الله به من سلطان... فلو صدق العزم، لحاولنا تحليل هذه الحقبة الهائلة من تاريخنا، واستخراج إيجابياتها وسلبياتها؛ حتى نتفادى الأولى، ونثمن الأخرى، وإذ لم نفعل، فإننا أثرتنا الهدنة السلبيّة - مجلس عمي سعيد نموذجاً - أو سقطنا في نفس الأخطاء والغلطات التي ارتكبتها من قبل - نشأة الحركات بأعداد لا حصر لها - والأمة الغافلة هي التي لا تستفيد من تاريخها، كما أنّ الإنسان المجنون هو الذي يكرّر نفس الأفعال و ينتظر نتيجة مغايرة.

ولست هنا أحكم "ل" أو "على"، ولا أدعو لعصبية أو تحيز مقيت، ولكنني أدافع عن التحيز المثمر، والمنافسة النزيهة، ولا أدلّ على هذا الموقف من نظرية: المعرفة والتعارف والاعتراف، للعلامة الشيخ علي يحي معمر رحمه الله.

يقول الشيخ علي يحي معمر، وهو من أبرز تلاميذ الشيخ عدون، ومن الحاملين لفكره ومواقفه، والمتربين على يده وتحت مسؤوليته: " وأنا على يقين في نفسي أنّ المذهبية في الأمة الإسلامية لا تتحطّم بالقوّة، ولا تتحطّم بالحجّة، ولا تتحطّم بالقانون. فإنّ هذه الوسائل لا تزيدنا إلى شدّة في التعصّب، وقوّة في ردّ الفعل؛ وإنّما تتحطّم المذهبية ب: المعرفة والتعارف والاعتراف.

فبالمعرفة يفهم كلُّ واحد ما يتمسّك به الآخرون، ولماذا يتمسّكون به.

وبالتعارف يشتركون في السلوك والأداء الجماعيّ للعبادات.

وبالاعتراف يتقبّل كلُّ واحد منهم مسلك الآخر برضى، ويعطيه مثل الحقّ الذي يعطيه لنفسه، اجتهد فأصاب أو اجتهد فأخطأ.

وفي ظلّ الأخوّة والتسامح تغيب التحديات، وتجد القلوب نفسها تحاول أن تصحّح عقيدتها وعملها بالأصل الثابت في الكتاب والسنة. غير خائفة أن يقال عنها: تركت مذهباً، أو اعتنقت مذهباً» (18).

أمّا أ. د. طه جابر العلواني، فيطور مفهوم التنوعية عو التعددية ويقول: «والتنوع الإنساني موجه نحو

(18) - الإباضية بين الفرق الإسلامية، مط. العربية، غرداية 1987م، ص7.

"التعارف" - والتعارف يقابل التناكر - والتعارف يؤدي إلى "التآلف"، والتآلف يؤدي إلى "التآخي"، والتآخي يؤدي إلى "التعاون على الفعل الحضاري الموصوف بالبرّ والتقوى، وفي مقدّمة ذلك البرّ العمل على إيجاد "الأُمَّة القطب"⁽¹⁹⁾.

التعارف ⇐ التآلف ⇐ التآخي ⇐ التعاون ⇐ الأُمَّة القطب

خاتمة

ويبرز الشيخ عدون في جميع التحيزات التي ذكرناها، والتي لم نذكرها، رائدا لا يكذب أهله، وأُمَّة لوحده، عاش حياته - الطويلة - لله، وفي كنف الله، سعيدا بما أعطاه، راض فيما ابتلاه، مجتهدا دوما للمزيد من المبرات والإنجازات... فترك لنا مدرسة فكرية إيمانية، عليها اليوم يقع الحمل في إصلاح الأُمَّة، والأخذ بيدها إلى درجة التمكين، وجماع ذلك كلّه مقولته المشهورة، التي أصبحت مضرب المثل:

«إننا أوجدنا حلولا لعصرنا، فعليكم أنتم أن توجدوا الحلول لعصركم».

والله ولي التوفيق، وهو الهادي إلى سواء السبيل.

(19) - العلواني، طه جابر: التعددية أصول ومراجعات، بين الاستتباع والإبداع، نشر المعهد العالمي للفكر الإسلامي، سلسلة أبحاث علمية عدد 11؛ ط: 1417هـ/1996م. ص22. وانظر - مني عبد المنعم: الأُمَّة القطب، في نفس السلسلة.

مقالات الشيخ عدون

مصنفة حسب التحيزات المختلفة

*قضايا فكرية وأخلاقية وحضارية:

1. احتقار النفس
2. إذا مت ظمآنًا فلا نزل القطر.
3. الأزمتان الجهل والفقر.
4. الأفكار المستعبدة بالأوهام والخرافات.
5. الإفلاس الديني جسر إلى هوة الإفلاس المادي.
6. الانتقام السافل علله وأسبابه ونتائجه.
7. إنكار الذات في سبيل المصلحة العامة.
8. الأوهام وآثارها في النفوس.
9. التسوية ومثال المفرطين.
10. التشاؤم.
11. التعاون الاجتماعي.
12. حافظوا على الصلوات.
13. حرية العقل.
14. الحياة السافلة وكيف التوفي منها.
15. خلل كبير في صحافتنا.
16. ذكرى الهجرة: عبرة الدهر الخالدة وآية الله الكبرى فهل من مذكر؟
17. الشعور بالخطر باعث على درئه.
18. ضعف الإيمان بالله.
19. الغرور.
20. كيف ينتقدون بين الجدران.
21. المبادئ الصحيحة ومواقف البسطاء والغافلين إزاءها.
22. المثل الأعلى وكيف يجب اتخاذه علما في مفازة الحياة.
23. المصلحة الشخصية: آفة مبيدة للمشاريع.
24. المطمح الأسمى ونتيجة إقبال الناس عليه.
25. المطمح الأسمى.
26. من أمراضنا الاجتماعية آفة الإياس الفتاكة.
27. موقفنا إزاء الواجبات العمومية.

28. هذه خصائصنا : فهل آن لنا أن نعرف كيف نستثمرها؟

29. هذه مقدمة الحرب

30. هذه مقدمة الحرب تفتك بنا فهل آن لنا أن نزدجر ونرعوي.

ملاحظة: هذه المقالات في الفكر والأخلاق والحضارة، تعالج من قريب أو بعيد جميع التحيزات الأخرى.

*الأدب والعربية:

1. ثلاث ليال في الصحراء، أو درس تطبيقي في الأدب العربي، العرب عرب في أي زمان وفي أي مكان.
2. رياض الأدب - اللغة العربية-
3. شعر: رياض الأدب: بن أوطانها هل من قيام؟

التعليم:

1. أعداء العلم الألداء.
2. إعراض الأمة عن ثمار عقول أبنائها.
3. حول التعليم: ها هو موسم الدراسة على الأبواب فماذا أعددنا له؟
4. ذكرى الفيلسوف الكبير الشيخ إسماعيل الجيطالي: الاحتفال بختم كتابه.
5. كيف يفهمون الانتقاد النزيه.
6. ماذا نورث أبنائنا بعدنا من أسباب التعاسة و الشقاء ؟
7. المتطفلون على موائد العلماء.
8. من هم الجناة على العلم.

الإصلاح:

1. الاجتماع العام لجمعية الحياة بمناسبة رأس سنتها الأولى.
2. احتفال جمعية الحياة بمناسبة رأس سنتها الأولى.
3. إذا لم يكن الإصلاح لدفع الإفساد فمتى يكون و لماذا يجب إذا؟
4. الجمود و كيف يجب على الأمة الاتقاء منه.
5. الجمود.
6. دعاة الإصلاح وما يجب عليهم.
7. رحلة الشيخ بيوض إلى وهران.
8. كيف يكون الإصلاح.
9. متى يجلب الإصلاح؟

*العالم الإسلامي:

1. ألم يأن للصحافة المصرية أن تنزع عن كبريائها وتتنازل لمبادلة زميلاتها.
2. فضلاء الزيتونيين يخطون خطوة موفقة بتأسيس (جمعية الرابطة الزيتونية).
3. في سبيل إعزاز الدين: الشباب المصري يعلن اليوم جهاده الديني فينتصر كما أعلن أمس جهاده السياسي فانتصر .
4. المؤتمر الإسلامي بالقدس ونتائجه.

الجزائر:

1. الجزائر المسلمة يجب أن يكون لإسلامها صوت مسموع.
2. كتاب الجزائر وما هو واجب الأمة إزاءه.
3. من صور حياة الجزائر يوم مشهود في الملعب البلدي بيانات وفد المؤتمر.

ميزاب:

1. جولة في وادي ميزاب.
2. دمة وادي ميزاب..
3. لمعة من تاريخ وادي ميزاب.
4. ميزاب يشكو آلاما، وينشد آمالا، ويطالب رجاله ببثها هم فاعلون؟